مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الانسانية، م٢٦ع٣ ص ص: ٧٧- ٩٨ (٢٠١٨م)
DOI:10.4197/Art.26-3.4

مكة المكرمة في مطلع القرن السابع الهجري (١٣م) من خلال رحلة ابن المجاور (تَأرِيخ المُستَبصِر)

نواف عبد العزيز الجحمة

أستاذ مشارك – كلية التربية الأساسية

الهيئة العامة للتعليم التطبيقي – دولة الكويت

مستخلص. قدم ابن المجاور في العامين (٦٢٥ –٦٢٦هـ)(١٢٢٧–١٢٢٨م) ، وصفا دقيقا لمكة المكرمة في عصره، منبها بذلك إلى أهمية مكة المكرمة ومكانتها الدينية. وتعتبر المادة التي قدمها على جانب كبير من الأهمية لأنها ملأت فراغا في المعلومات الرحلية والجغرافية عن مكة المكرمة في مطلع القرن السابع الهجري(١٣م) ،خاصة وان ابن المجاور لم يكن محدثاً ومؤرخاً فقط، ولكنه كان إلى جانب ذلك رحالة دقيق الملاحظة.

ونظرا لأهمية الكتاب من الناحية العلمية والتاريخية فقد ارتأينا أن نعود إليه، وخاصة إلى أكثر طبعاته توثيقا تحقيق اوسكر لوفقرين Lofgren، بهدف استنطاق مادته عن مكة المكرمة والوقوف عند بعض ما تختزنه من تفاصيل وإشارات معبرة عن مرحلة هامة من تاريخ مكة المكرمة لقلة ما كتب عنها ولاضطراب المادة التاريخية المتوفرة حولها

المقدمة

قدّم ابن المجاور [١] وصفاً دقيقاً لمكة المكرمة في عصره، منبهاً بذلك إلى أهمية مكة المكرمة ومكانتها الدينية، وتعتبر المادة التي قدّمها على جانب كبير من الأهمية ،لأنها ملأت فراغاً في المعلومات الرحلية والجغرافية عن مكة المكرمة في مطلع القرن السابع الهجري (١٣م)، خاصة وأن ابن المجاور لم يكن فقط رحالة دقيق الملاحظة، ولكنه كان إلى جانب ذلك عالماً بالمعطيات الطبوغرافية والحضارية وهي جميعها تكشف عن معرفته بمكة المكرمة خاصة في محيط الاثنوغرافيا والأدب الشعبي (الفولكلور) [٢] يقول كراتشكوفسكي: "إن ابن المجاور

كاتب أصيل له طابعه الخاص به وأنه ربما يحتل المكانة الأولى فيما يتعلق بالملاحظات الأثنوغرافية"[٣].

ونظراً لأهمية الكتاب من الناحية العلمية والتاريخية، فقد ارتأينا أن نعود إليه وخاصة إلى أكثر طبعاته توثيقاً ودقة[٤]، بهدف استنطاق مادته عن مكة المكرمة والوقوف عند بعض ما تختزنه من تفاصيل وإشارات معبرة عن رحلة هادفة من تاريخ مكة المكرمة في تلك الفترة، وسنحاول معالجة المادة التي قدمها عن مكة المكرمة حسب تصنيفها إلى ثلاثة محاور هي (المجال والمجتمع والاقتصاد).

١- المجال:

أول ما بدأ به ابن المجاور ذكر أسماء مكة وصفاتها معتمداً على المروّيات والمصادر المعتمدة في تاريخ مكة المكرمة[٥]، وقد ربط المجال المكي بالمحاور الطرقية الرئيسة والتزم بوصف المدن الحجازية على أساس ثلاثة محاور طرقية.

ـ المحور الأول: (من مكة إلى المدينة) على طريق بني عصبة وهم السرو[٦] ثم إلى بطن مر أربعة فراسخ وهو واد طيب، وبنى فيه بعض أمراء مكة من الشرق قصراً ،وهو الآن خراب وإلى الهدى أربعة فراسخ، وإلى برزة أربعة فراسخ، وأبي شابه أربعة فراسخ، وإلى المدينة المنورة وإلى هجر وهي أرض بني سليم التي فتحها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وإلى الخضراء من يثرب ونجد (مرك) ثم بئر علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإلى قباء أربعة فراسخ، وهي مدينة قبل المدينة، وفي مسجدها قبلتان أحدهما إلى جهة المشرق والثانية إلى جهة الكعبة لما أمر الله سبحانه النبي صلى الله عليه وسلم أن يوجه وجهه نحو الكعبة لما قال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [٧] ثم إلى المدينة فرسخ بين نخل باسقات شامخات[٨] .

ـ ويربط المحور الثاني (من مكة إلى الطائف) بعد مكة إلى منى فرسخ ،وإلى المشعر الحرام فرسخ، وإلى جبل عرفات فرسخ ،مبتدئ وادي نعمان ،وفيه أراك ونخل، وإلى برقة فالمرزة والحجر فرسخان ويكون جوازك على جبل عال يسمى عفر، قال ابن المجاور: ولا شك أنه يسمّى غزوان، وبه قال الشاعر:

إذا خِفتُ يوماً من أمير عُقوبةً فلِي باللِوَى
من رأس غَزوانَ مَنزلُ[٩]

ثم يواصل ابن المجاور سيره حتى يصل إلى الطائف ،فيقول في وصفها: "الطائف سامية باردة الماء صحيحة الهوى كثيرة الفواكه، زراعتهم الحنطة اللقميّة التي تشابه اللؤلؤ، وأهلها من ثقيف وقريش على زي أهل مكة في الأكل والملبس[١٠]".

فبعد وصف ابن المجاور لأحوال الطائف، أورد الطريق من الطائف إلى مكة بداية بموقع حدب الرنج، وهو كهف جبل، ثم إلى الطود الأعظم وهو الذي يسمى الحجاز على حد قوله[١١].

– المحور الثالث فهو طريق (مكة – جدة)وبعد ما ذكر الأماكن والعيون الواقعة عليه، بيّن أن الشريف الحسين بن ثابت السديدي غرسا في جميع البلاد نخلاً مقدار عشرين ألف نخلة، ولكن تمت مصادرتها من قبل الأمير طنبغا الملك الكامل[١٢] عندما حكم الحجاز في سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥م[١٣].

والى جانب هذا التقسيم الذي جاء فيه ابن المجاور وفقاً لمنهج أدب "المسالك والممالك" فإنه كان واعياً في الوقت نفسه بخصائص المجال الحجازي وبوحداته الجغرافية عارفاً بتقسيماته الإدارية ولكن من الطريف ملاحظة أن بعض مخطوطات الكتاب تحمل صورة بدائية لتخطيط مدينتي مكة وجدة[١٤].

أ – تسوير مكة وأشكال البناء: اهتم ابن المجاور ببناء البلد الحرام منذ بداية بنائه إلى اكتماله، مبرزاً مختلف جوانبه في الماضي والحاضر، ولكن ما يهم ابن المجاور البناء المحدث في هذه المدن بحكم الظرفية التاريخية المضطربة التي تعيشها مكة ،خاصة ولاة مكة الذين اضطرتهم رغبتهم في الحفاظ على استقلال مكة إلى محاصرتهم من جميع الأطراف، من جانب الأيوبيين تارة ومن جانب الرسوليين تارة أخرى.

يذكر ابن المجاور أن الأمير هاشم بنى مدينة ظاهر مكة ما بين درب الثنية والمسفل تسمى مربعة الأمير – فكان سكن فيها جنده وخدمه وحشمه وبقي البلد عامراً[١٥] .

لكن تحصين المدينة لم يكن دائماً منيعاً ، لذلك كان الأشراف يلجؤون إلى التحصينات الطبيعية كقمم الجبال وطرقها الوعرة ،فها هو يسجل شروع بناء الأمير قتادة بن إدريس[١٦] على محيط مكة سوراً من الحجر والطين، وذلك على رؤوس الجبال وبطون الأودية وركّب عليه أربعة أبواب:

باب درب المعلى ينفذ إلى عرفات ، وباب درب الثنية ينفذ إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ويسمى باب جدة وباب العمرة، وباب المسفلة ينفذ إلى اليمن، وباب الصغير ينفذ إلى الصفا[١٧].

ب – ظاهرة الخراب: الإقرار بوجود هذه الظاهرة يتطلب منا الاستشهاد بعدد كاف من الوقائع المؤدية لهذا المفهوم وبالأخص من الأحداث التي جرت في فترات متتابعة تتعلق بالانكسار الذي دب في جسم الدولة العباسية ببغداد والدولة الأيوبية بمصر والشام، مما أدى بطبيعة الحال إلى تمادي الفتن والصراعات بين الأشراف، وهذا ما رأيناه جلياً في مطلع القرن السابع الهجري (١٣م) [١٨] .

وقد أثارت هذه الظاهرة ابن المجاور فتحدث عن خراب المدينة التي بناها الأمير هاشم بظاهر مكة وذلك في عهد دولة الأمير عيسى بن فليتة [١٩] واستمرار خرابها إلى دولة الأمير قتادة بن إدريس[٢٠].

وهنالك نوع آخر من التخريب كان ناتجاً عن طغيان ظاهرة البداوة في مدينة جدة، في الوقت الذي فقدت فيه الدولة الأيوبية سيطرتها على الحجاز في تلك

الفترة ،فقد أورد لنا ابن المجاور ما آل إليه الأعراب من نفوذ وسطوة على مدينة جدة – يقول في نصه "فلما خلت الأرض من الأحباب ملكها الأعراب في دولة الأمير داود بن هاشم ....، ومن عهدهم خربت واندرست وبقيت الآثار خاوية على عروشها.

كما قال الشاعر:

لا بلّغ اللهُ نفسي فيك مُنيتَها وإن كان بَعْدَكِ بُعد الدار غيّرني

جعلتُ دمعي على ذِكراكِ مُحتسِباً والدمعُ عِنوانُ ما يخفى من الحزَنِ

وأقسمت مُقلتي ما لا تظنُّ به فالذكر يَجْري ويُجرِي الدمعَ في سَنَني

وقائلٍ لِي قد بانوا فقلتُ له قد فرّق اللهُ بين الجَفْن والوَسَنِ[٢١]

يبدو أن ظاهرة الخراب وتراجع العمران في الحجاز في مطلع القرن السابع الهجري (١٣م) من الظواهر التي تستحق الوقوف عندها، وذلك بسبب الصراعات السياسية وتمادي الفتن الداخلية، وبالرغم من أن اندثار العمران هي حقيقة تاريخية موجودة في المدن، إلا أن الاندثار سرعان ما يتحول إلى بناء وعمران وبالتالي استرجاع عافيتها.

٢- الخريطة السياسية:

دخل ابن المجاور إلى مكة في مرحلة حرجة تميزت بالصراعات السياسية، وبالذات حينما أصبحت القوى المحلية تنتعش من جديد بعد تراجع تأثير القوى الخارجية (مصر، اليمن) حيث استعادت أسرة قتادة بن إدريس (٦١٧هـ – ١٢٢٠م) زمام الحكم في بلاد الحجاز في مطلع القرن السابع الهجري (١٣م)، فقد ذكر ابن الأثير في تاريخه أن ولاية قتادة اتسعت في بعض السنين من حدود اليمن إلى المدينة المنورة، وكثر عدد عسكره حتى خافه العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً[٢٢].

وكان قتادة في أول أمره حسن السيرة، واستطاع أن ينشر الأمن ويقيم العدل ويكرم وفادة الحجاج، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن أساء سيرته، وجدد المكوس[٢٣].حتى أنه نهب الحجاج في بعض السنين – قيد ابن المجاور إشارات تفيد التغير الذي طرأ في سياسة قتادة تجاه حكم من يخالفه – فمن هذه الإشارات أخذ المكوس من الحجاج المغاربة في مدينة جدة[٢٤]، وهلاك الحرث في منطقة تمتد من يثرب إلى الخضراء[٢٥]، وهدم حصن "الهجوم" خوفاً من أن يعصيه فيه أحد من الأعراب وبقي الحصن خراب على حد قوله[٢٦].

قد أغفل ابن المجاور ذكر أية معلومات حول ولاية الأمير حسن بن قتادة[٢٧] لإمارة مكة المكرمة عقب وفاة أبيه، وسيطرة صاحب اليمن الملك المسعود[٢٨] على الأمور في مكة المكرمة وانتزاعها من حسن بن قتادة في سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م.

إلا أنه أورد لنا خبر صراع الأشراف بعضهم بعضاً، فساعد في إكمال صورة الحالة السياسية في تلك الفترة بقوله: "وفي هذه الأيام قتل الأمير قاسم بن

المهنا بن جماز ابن عمه شيحة، وتولى بعد قتله الأمير هاشم بن قاسم على ملك مكة"[٢٩].

مهما يكن فإن مسلسل الصراعات الدموية بين الأشراف أخذ في الاستمرار حتى في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ ١٣م، فالرحالة أبو القاسم التجيبي السبتي (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) [٣٠] أفاض في كيفية الاغتيالات السياسية والصراعات الداخلية من أجل الوصول إلى الحكم بمكة المكرمة[٣١]، وهذا إن دل فإنما يدل على أنه لم يكتف بنقل ما سمع من أحداث، بل ذكر ما شاهده وسمعه هو أيضاً، وهنا يتبين لنا أهميته كمصدر معاصر لبعض الأحداث السياسية بمكة المكرمة.

٣- السكان والمجتمع:

إن أهم صورة تطالعنا عند تأمل المشهد الاجتماعي الذي يعرض له ابن المجاور هي تلك الصورة المتعلقة بطبيعة الخريطة الاجتماعية ونظامها الترابي، إذ تنوعت المظاهر الاجتماعية متخذة مظاهر عدة، لذلك سنحاول قدر الإمكان تتبعها.

أ- عناصر المجتمع:

ضمت مكة المكرمة العديد من العناصر المجتمعية، والواقع أننا لا نستطيع حصرها وإنما سنعمل على إبراز أهم العناصر الموجودة في مكة المكرمة والتي استخرجناها من رحلة ابن المجاور.

فمن عناصر المجتمع: آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم من ذرية الحسن بن علي وهم السليمانيون وبنو هاشم وبنو قتادة[٣٢]. كان شرفاء مكة أيام ابن المجاور بنو قتادة الحسنيون الذين حكموا مكة منذ سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، وكونوا في مكة طبقة من طبقاتها. وقد توارث الحسنيون إمارة مكة، وصارت لهم عصبية تحميهم[٣٣]. وفي رحلة ابن المجاور نجد إشارة إلى حاكم مكة من آل الحسن بن علي ،الأمير حسن بن قتادة بن إدريس[٣٤]، حيث كان مقيماً في مكة واعتمد على القوّاد في تسيير أمور البلاد،إلا أننا لم نعثر على أسماء أحد منهم.

وقد أورد ابن المجاور خبر نفوذ الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي في مكة المكرمة حينئذ بشكل مقتضب[٣٥]، لكنه سكت عن ولاية نائبه نور الدين علي بن عمر بن رسول مكة المكرمة ٦٢٦ه/١٢٢٨م، وعلى أثر وفاة الملك المسعود ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م اضطرب أمر الحكم في مكة المكرمة خاصة بعد أن أقام نور الدين علي بن رسول[٣٦] دولة له في بلاد اليمن[٣٧].

وفي رحلة ابن المجاور نجد إشارة إلى سكان مكة الأصليين الأشراف من نسل الحسن بن علي ابن أبي طالب، والعبيد الذين يجلبون من أماكن متفرقة مثل الحبشة والنوبة والديلم[٣٨]، وأوضح أن الأشراف اشتهروا بنكاح الجواري الحبشيات، لذا عرفوا من الناحية الخلقية بالسمرة والبسطة في الجسم يقول: "وهم رجال سمر لأن جلّة مناكحهم الجواري السود من الحبش والنوبة، طوال الجثث صحيحو اللغة قليلو المال كثيرو العشائر والقبائل ذوو قناعة"[٣٩].

ومما يؤكد على صحة هذا الوصف ما أورده الرحالة أبي القاسم التجيبي في نهاية القرن السابع الهجري (١٣م) أن الشريف أبي نمى له ابن يسمى زيد المعروف بابن السواكنية،وأمه بنت ملك البجة، صاحب ميناء سواكن[٤٠]، فبينما ابنه رميثة هو الآخر كان أسود اللون[٤١]، وكذلك كانت والدة الشريف أبي سعد الحسن حبشية[٤٢]، لربما يكون الداعي إلى التزوج بهذا الجنس هو لتدعيم سلطة الشريف المتولي للإمارة[٤٣].

ومن العناصر التي وجدت أيضاً "الأعراب" وهم فئة احترف بعضهم السرقة والاعتداء على الحجاج وسلب أموالهم، مما تسبب في بروز خطرهم على المجتمع المكي، ونلاحظ أماكن تواجدهم في الطرق المؤدية إلى مكة والمدينة، وفي رحلة ابن المجاور نجد إشارة تفيد انتشار أعراب بني شعبة في المشاعر المقدسة وهدفها الاعتداء على الحجاج بالسلب والنهب والقتل.

يقول: "ولم يكن في جميع العالم أصل من هؤلاء القوم ولا أسرف ولا أجرم ولا أخسر منهم في أخذ مال الحاج، لأنهم يسمون الحاج جفنة الله، فإذا قيل لهم في ذلك يقولون: إذا حضر جفنة الله لخلقه أكل منه الصادر والوارد وإذا قلت لأحدهم: قطع الله رزقك من الحرام. يقول: لا بل قطع الله رزقك من الحلال اما ترى عندنا من الخير سوى هذه الجبال السُود لا لنا زرعَ ولا ضرعَ ولا أخذ ولا عطاء، وجميع ما تعملوه أنتم مع حاج آخر جاء مقابل الكعبة من الفضائح والغنائم فسلّطنا الله عليكم حتى نستقضي للحاج منكم الحق وثُلث الباطل"[٤٤].

هذا ويتفق الرحالان ابن رشيد السبتي (٦٢٨هـ/ ١٢٥٨م) والبلوي القنتوري (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) مع ما ذكره ابن المجاور في خبر انتشار الأعراب في المشاعر المقدسة، فقد وصل خطرهم إلى حد أن ابن رشيد ترك المبيت بمنى وقت أدائه لفريضة الحج خوفاً على حياته منهم[٤٥]، كما أشار البلوي[٤٦] إلى انعدام الأمن أيضاً من الأعراب عند وصوله إلى ماء هدية[٤٧].

والملاحظ أن الأعراب آنفوا الخضوع لسلطة ولاية الأشراف في بلاد الحجاز، وذلك لسبب ضعف رقابة الأشراف على المناطق التي يصعب السيطرة عليها، وهذا نجده في المشاعر المقدسة ،يذكر أن الناس لم يستطيعوا المبيت في منى، وذلك اضطراراً بسبب خوفهم من بني شعبة المغيرين على الحجاج في طريقهم إلى عرفات، كذلك لم يستطع أهل مكة في بعض الأحيان أن يجلبوا الماء إلى عرفات لكثرة الإغارة عليهم[٤٨].

أما عن حياة الأعراب الخاصة، فقد شاهد قبائل السرو لا يحكم عليهم سلطان ،بل مشايخ منهم وفيهم وهم بطون متفرقون على حد تعبيره[٤٩].

لعل السيئة التي يبرزها ابن المجاور في رحلته عن قبائل السرو قد تكون وليدة المجتمع والعزلة، فها هو يحدثنا عن فساد نسائهم.يقول في نصه: "فإذا خرج أحدهم إلى سفر أتت المرأة إلى عند المُخلِف أي

عشيق تلك المرأة، يحاضنها إلى أن يرجع زوجها، فإذا قرب المسافر من منزله نادى بأعلى صوته: أيها المخلف اللجوج، قد حان وقت الخروج، ويدخل المسكن غفلة فإن وجده في المسكن قتله، وإن كان قد خرج فقد عفا الله عما سلف، وسألتُ رجلاً منهم في مكة فقلت له: أيها الرجل النزيل ماذا يصنع المخلف؟ فرد أسوأ الجواب فقال: يسحق الخبز ويمحق المرأة"[٥٠].

في الواقع أن مفهوم الفساد وانحلال الأخلاق يصعب أحياناً تحديده من خلال حديث مقتضب فحكاية ابن المجاور هذه تطرح أن المجتمع الذي يصفه الراوي هو مجتمع بدائي ، وأن هناك عادات لم يستطع العلماء إزاحتها من تلك المجتمعات، حيث أن مفهوم الأخلاق يصبح نسبياً فيسمح للمرأة تذهب للفساد وكأن الفساد ولد معها ولازمها، وأنه متمم لذاتها كأنثى.

من جانب آخر، كان لبعض الأشهر الهجرية عند السرو أهمية خاصة كشهر رجب يعتبر موسماً وعيداً من أكبر أعياد مكة، وتوارثوا ذلك عن أسلافهم وهو أحد الأشهر الحرم ،يبين ابن المجاور أهمية الشهر حيث تتم فيه العمرة الرجبية التي كانت تعادل عند السرو وقفة عرفة، يقول: "وغاية حج القوم عمرة أول رجب، وقد ضمن لهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تلك العمرة بحجة كاملة[٥١]". [٥٢]

تتطابق رواية ابن المجاور مع ما نقله ابن جبير في القرن السادس الهجري (١٢م) عند حديثه عن العمرة الرجبية كعادة دينية متوارثة عند قبائل السرو، بقوله: "والعمرة في هذا الشهر كله متصلة ليلاً ونهاراً، رجالاً ونساءً،لكن المجتمع كله إنما كان في الليلة الأولى، وهي ليلة الموسم عندهم" [٥٣].

أما طريقتهم في مسائل التجارة والبيوع فأمورهم في ذلك عجيبة لأنهم لا يتقاضون من بضائعهم نقوداً بل كانوا يقايضونها بالخرق والعباءات والشّمل التي يعدها أهل مكة استعداداً لقدومهم[٥٤].

يبدو هذه التجارات والمبايعات عملت على توطيد العلاقة بين قبائل السرو وأهل مكة، فبلادهم خصيبة متسعة وافرة الغلات الزراعية ، فيجمعون بين النيّة في العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة، يقال: "ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش"[٥٥].

كما لم يفت ابن المجاور في إلقاء الضوء على أوضاع اليهود وتوزيعات عناصرهم وأعدادهم على نحو لا نجد له نظيراً لدى الرحالة المشارقة ، كما لم يفته الحديث عن أوضاعهم المعيشية في القرى الجنوبية مثل "تبالة"[٥٦] وما جاورها من الحصون، وذلك لما تحتويه من أهمية في المواقع التجارية التي تمثل حلقة وصل بين مكة واليمن، فالقوافل الحجاجية والتجارية ينزلون بها للضيافة والتزود من الماء والتمر. ومن المرجح أن اليهود شكلوا عناصر نشطة ومؤثرة عملت على ازدهار التجارة وقتئذ، والملاحظ أن عددهم كان يتزايد خاصة في هذه المواقع، ويكفي ما ذكره ابن المجاور عن توزيعات اليهود

العددية.يقول: "حدثني يهودي صائغ بعدن قال: إن نهر السبت في أرض يقال لها: صيون والأصح أنه في الحجاز ظهر، وهو نهر رمل سيال يجري من ليلة الجمعة إلى غداة يوم السبت – ووراء هذا النهر من اليهود مائة ألف ألف رجل وامرأة وهم زائدون على العد خارجون عن الحدّ، والقوم عرب يعقدون القاف الألف في لغتهم، وفي جملة القوم أولاد موسى بن عمران عليه السلام"[٥٧].

كما يشير إلى خطرهم تجاه الحجاج في بعض الأحيان بقوله: "إذا تاه بعض الحجاج بطريق مكة ووصل إلى القوم فبعضهم يقتله، وآخرون يقبلونه ويردونه على أحسن حال"[٥٨].

تتفق رؤية ابن المجاور مع ما ذكره الرحالة بنيامين التطيلي الأندلسي في القرن السادس الهجري/١٢م في وجود بقايا من اليهود في أرض اليمن، فقد ذكر في مجمل حديثه "واليهود هنا مرهوبو الجانب من جيرانهم، لديهم الأراضي الواسعة.. وهؤلاء يعيشون حياة كلها تقشف وزهد، لا يذوقون لحماً ولا يشربون خمراً لباسهم السواد ومأواهم الأكواخ والكهوف يقضون جل أوقاتهم صياماً بإستثناء أيام السبوت والأعياد"[٥٩].

ومن الأمور ذات الدلالة أن ابن المجاور لم يشر البتة إلى أية اضطهادات لحقت باليهود، وذلك لما يتمتع به ولاة المسلمين (الأيوبيين) من دراية في معاملتهم لأهل الذمة.

ب – العادات والتقاليد: (زواج أهل مكة انموذجاً):

ومما هو جدير بالذكر أنه لم توجد إشارة واضحة تتحدث عن العادات الاجتماعية، سيما إشارة ابن المجاور وهي "زواج أهل مكة"، فقد ذكر من عادات زواج المكيات تخصيص اليوم العاشر من ذي الحجة لخطبة النساء خاصة اللاتي تجهزن لذلك اليوم ويستعدن استعداداً عظيماً،وجرت العادة أيضاً أنه في العاشر من المحرم يدخل كل واحد منهم على عروسه بالنظرة والتظهير على حد قوله[٦٠]. وتساءل ابن المجاور لِمَ ذاك، قالوا: لأن كلاً منا يعيش مع الحاج في كل فن من الفنون من حرام وحلال، فإذا رحل الحاج دار الخطّب والنكاح والأفراح والأعراس بين الناس"[٦١].

ومن العادات التي كانت تحدث في زواج المكيات أنه إذا تزوج رجل من أهل مكة وقطع المهر وأراد الدخول على المرأة يخضّب الرجال أيديهم وأرجلهم تزيناً .ويحضر كل أصدقائه من الأهل والأقارب وبيده قرطاس منشور مكتوب عليه اسم الآتي مع وزن المبلغ وعدده، يقدمه قدّام العروس كل على قدر حاله وسعة ماله[٦٢] .وبعدها يخرج العريس إلى الحرم ويطوف سبعاً ويصلّي في مقام إبراهيم عليه السلام ركعتين ويقبّل الحجر الأسود، ويخرج بالشمع إلى بيت العروس فتُجلى عليه ويدخل عليها ويبقى عندها سبعة أيام[٦٣]، ففي اليوم السابع يخرج يضم الطرح (المال) الذي طرح له ، ويكون ذلك الطرح ديناً عليه[٦٤].

باستطاعة القارئ في أخبار ابن المجاور عن الأعراس المكية أن يكوّن فكرة واضحة من خلال تلك المفاهيم الضمنية التي تربط المرأة بالرجل في هذا المجتمع ضمن ثوابت من عادات وتقاليد قد تنم أكثر بكثير مما عناه الرحالة. فالتقاليد كالقانون تفرض نفسها وتسن شرائعها.

٤- الاقتصاد:

تتضمن الرحلة جغرافية اقتصادية، فقد كان لابن المجاور حاسة ميدانية في رصد الأنشطة الاقتصادية المختلفة.

أ- الثروة الزراعية:

ويمكن تلخيصها في الأقوات والمعيشة التي تتوفر عليها أسواق مكة. وقد قال عنها ابن المجاور: "ويطلع بها من جميع الخضر مثل البطيخ والخيار والقثاء والباذنجان والكراث ويأكلونه بالتمر والفجل وما أشبه ذلك وبها الرطب الطيب من البرني والمكتوم.ويقال:إنه كان في قديم الأيام يجتمع بها من جميع الأزهار والفواكه والثمار والرياحين"(٦٥).

كما يشير إلى أثمان السلع، وفي هذا الصدد يعطينا لائحة قديمة حول بعض هذه السلع وأثمانها في زمن العباسيين في مكة(٦٦).

وفي موضع آخر يتكلم عن الرخاء المتدفق على مكة المكرمة خاصة في موسم "العمرة الرجبية"، فها هو في رحلته يصف لنا الأماكن التي تجلب منها كل أنواع هذه الأرزاق يقول: "وغاية حج القوم (السرو) عمرة أول رجب. فإذا دخلوا مكة ملأوها خبزاً من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن واللوز والزبيت وما شابه ذلك، ولذلك يقول أهل مكة: حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب، والسرو أمنا نكسب منهم القوت"(٦٧).

يعتبر نص ابن المجاور من أغنى النصوص في نقل صورة الحاصلات الزراعية في مطلع القرن السابع الهجري/ ١٣م، لأنه نقل معلومات من أنواع الأقوات والمعيشة التي تتوفر عليها أسواق مكة، وأماكن ورودها بطريقة تنم عن وعي اقتصادي، فهو يرى توسع في النشاط الميداني الفلاحي في جبال السراة والطائف مواضع قبائل السرو. والعلاقة التجارية مع مكة باعتبارها سوقاً رائجاً في المواسم الدينية(العمرة الرجبية والحج نموذجا).

هذا ويتفق ابن المجاور مع ما ذكره ابن جبير في القرن السادس الهجري/ ١٢م في مشاهدة قدوم قبائل السرو إلى مكة في المواسم الدينية، ومعهم ضروب من الأطعمة "فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة. فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين وترخص الأسعار وتعم المرافق" (٦٨).

ب – الصناعة:

أما عن الصناعات التي استرعت اهتمام ابن المجاور عند مروره بالحجاز فهي استنباط المياه الجوفية والطبيعية، هناك مصانع للمياه المعدنية تسمى الصهاريج (البئر الكثيرة الماء، البعيدة القعر)، والتي تقوم بحفظ ما يسيل إليها من مياه الأمطار العذبة النازلة على القرى في المواسم، يحدثنا ابن المجاور

عن أخبار بعض الصهاريج القديمة عند زيارته لمدينة جدة بقوله: "فكان إذا وقع الغيث وامتلأت منه الصهاريج التي بظاهر البلد كانت العبيد تنقل ماء الصهاريج على الدواب فتقلبه في الصهاريج التي عندهم في الدور، وكذلك صهريج الأخميمي وصهريج مسجد الأبنوس، وصهريج الجامع ، وكان يبقى الماء عندهم من العام إلى العام وهم في أكل وشرب وغسل وهزل وهرج ومرج"[٦٩].

كذلك يذكر ابن المجاور نشاطاً صناعياً في مكة المكرمة يقوم به الصناع وهو صناعة الدباغة واشتهر صناع مكة بالعمل في الدباغة، إذ عرفوا باتقانهم لهذه الحرفة، لأن كان مركزها الصناعي في إقليم اليمن والحجاز ونواحيها، وهذا ما يفسر لنا كثرة الدباغين في هذه الفترة ويسجل ابن المجاور ملاحظته لاحتراف المكيين للدباغة وذلك بقوله: "ويدبغ في مكة جلود الجمال والبقر والغزلان، وكان مسافرو خراسان يشترون جلود البغال الفحولة من رستاق الموصل وسواد أربيل وتدبغ في مكة" [٧٠].

جـ - التجارة:

١- المقاييس والمكاييل والنقود:

في هذا الصدد لابد أن نلفت النظر إلى نوع من المقارنات الطريفة والدالة على الحس الاقتصادي الذي كان يتوفر عليه، والذي يعبر عن شمولية شخصيته: قضية تتبعه للأسعار وتتبعه للمكاييل والمعايير والموازين وقيمة العملات حتى لكأنك مصحوباً بجريدة تطلعك على أسعار ما يجري في السوق، وهكذا لم يكن الرحالة رجل فقه وأحكام، ولكنه رجل مطلع على كل شيء.

فقد بدا مهتماً بقضايا الصرف والمقارنة بين العملة في مكة وغيرها، وكذلك المقارنة بين الرطل بمكة والذراع في مصر والأوقية والدرهم اليمني وما تعرف عليه هناك مما سماه "صنجة مكة"[٧١]، ولم يفته وهو يتحدث عن ضرب الدراهم الكبار بمكة على قوانين اليمن وأن أسعار البضائع في مكة ترتفع بعد أيام الموسم بمدة شهر كامل[٧٢]، وقد رأيناه أحيانا يربط بين نقص قيمة العملة المكية بقيمة العملة البغدادية، خاصة في عهد السلطان طغتكين الكاملي الذي أمر في سنة ٦٢٢هـ/ 1٢٢٥م بضرب دراهم مستديرة سماها الدراهم الكاملية[٧٣].

مما تجدر الملاحظة به استمرارية الاضطراب النقدي في طيلة حكم الدولة الأيوبية على مكة[٧٤] لذا لم يكن هناك بد من ضرب نقود جديدة، غير أن هذا لم يحدث إلا في عصر الكامل بن العادل، ومن هنا اعتبرت الرحلة في مطلع القرن السابع الهجري/١٣م دليلاً تجارياً للذين تهمهم الدراسات الاقتصادية على ذلك العهد على ما أشرنا إليه.

يقول ابن المجاور: "ونقد البلد ذهب مصري وبها يضرب على عيار المصري يسوى الدينار أربعة وعشرين علوياً، ويحسب كل علوي أربعة دراهم كل درهم ستة فلوس، فلما رجعت الدولة لآل أيوب ضربوا الدراهم الكبار، ويقال: أول من ضرب هذا الدرهم الكبير بها المعز إسماعيل بن طغتكين في

اليمن، وأول من ضرب الدراهم الكبار بمكة الملك المسعود يوسف بن محمد على قوانين اليمن.

"فلما تولى ملك الحجاز طغتكين الكاملي نقص المائة الدينار فصار الآن تصح المائة المكية ببغداد أربعة وتسعين ديناراً"[٧٥].

٢- المكوس [٧٦]:

هي ضرائب إضافية نشأت عن حاجات وظروف جديدة اضطرت الدولة إلى فرضها، وفكرة فرض المكوس قديمة، وهي ليس بها سند شرعي، إنما توارثوا فرضها من عصور سابقة. وكان "المكس" يؤخذ من الحجاج والتجار بعيذاب، وإن لم تجب منهم في عيذاب جبيت منهم في جدة، ومقداره سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان، أما من لم يؤد المكس هذا يمنع من الحج والتجارة، ويعذب بأنواع شتى من العذاب[٧٧].

ومن المعروف أن صلاح الدين الأيوبي ألغى معظم المكوس الفاطمية التي كانت تجبى في مصر مرة واحدة سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. ولم يبق من المكوس بعدئذ سوى مكس الحاج، الذي ألغاه كذلك صلاح الدين سنة ٥٧٦هـ/١١٧٦م[٧٨].

على أن إسقاط المكس لم يستمر طويلاً، إذ أهمل خلفاء صلاح الدين إرسال ما التزم به صلاح الدين إلى البيت الحرام، فعاد الشريف يجبي المكوس من الحجاج والتجار [٧٩]. غير أنه في سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م ألغيت ثانية المكوس التي فرضها خلفاء صلاح الدين من قبل صاحب اليمن المنصور عمر بن رسول[٨٠].

ويتضح من تطور مسألة المكوس أنها كانت إجراء استثنائياً بسبب ضعف موارد إمارة مكة، لذا لم يفرق في هذه الفترة بين التاجر والحاج، وبمضي الوقت أدرك السلاطين المبالغ الطائلة التي يجنيها الأشراف من التجار والحجاج.

أشار الرحالة ابن المجاور إلى المكوس بشكل يوضح قسوة القائمين على جبايتها والقيمة التي تؤخذ منها سواءً في الورود أو الصدور، فقد وصف ما لقيه مع الحجاج المغاربة بجدة من نكال وما تحملوه من أذى، إذ انتهكت الحرمات وانتزعت الأموال من أصحابها. يقول في نصه: "حدثني إسماعيل بن عبد السيد بن البيع البغدادي قال: إن الأمير علي بن فليتة ابن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم كان يأخذ من المغاربة جزية في جدة إذا قدموا للحج، كان يأخذ من كل رأس سبعة يوسفية وزن كل يوسفي ثلاثة عشر قيراطاً وحبة بوزن مكة، وكان القواد يوزنون المغاربة أيضاً على كل رأس يوسفي في دية الكلب.

والموجب لذلك أنه جاء في جدة كلب فأخذ رغيف خبز فالتامت المغاربة فقتلوه فقامت القواد ليقتلوا المغاربة. فلما رأت المغاربة عين الهلاك أقروا على أنفسهم أن يزن كل واحد منهم يوسفي في دية الكلب، فتقرر ذلك عليهم فكانوا يزنون للأمير سبعة يوسفية

ويوسفي للقواد وصار المبلغ ثمانية يوسفية على كل رأس.

ومن لم يزن كانوا يأخذونه ويدلونه في صهريج من صهاريج جدة، والأصح في صهريج مسجد الأبنوس، ويقال: إنهم كانوا يصيرونهم إلى جزيرة صندلة، وقيل: إلى جزيرة أبي سعيد ويعلقون أحدهم بحقوه وقد عرش بها أخشاب لهذا الفن.

فإذا حج الناس وقضوا مناسكهم وأفاض كل راجعاً إلى مقصده فحينئذ يخرجون المغاربة من الصهاريج والجور وقسطوهم على المراكب الراجعة إلى مصر والراجعة إلى عيذاب والقلزم.

سئل قائد من القواد: لِم تأخذون منهم هذا اليوسفي وهم أشد الناس بخلاً وأنزق الناس في الخلق؟ قال: لقول الشاعر:

وخذ القليل من البخيل وذمه   إن القليل من البخيل كثير

قال الحسن بن محمد بن الحوت: ليس هو كذلك وإنما كان يزن أحدهم سبعة يوسفية ونصف كل يوسفي ستة وعشرين قيراطاً وحبتين بوزن مكة، وفي دية الكلب نصف يوسفي فصار المبلغ ثمانية يعقوبية، أسس ذلك في دولة الأمير عيسى ابن فليتة وبقي يحيى على حاله إلى أواخر دولة الأمير مكثر[٨١]، فلما كثرت الأقاويل ووصل هذا الخبر إلى مسامع العالم أنفذ صلاح الدين أبوالمظفر يوسف بن أيوب إلى الأمير مكثر بأربعة آلاف أردب حنطة، والأصح ستة آلاف أردب إلى جدة وإلى مكة وقال له: خذ هذا القدر واترك عن المغاربة الجزية مع دية الكلب، فأزال الأمير مكثر ذلك كله في سنة ست وثمانين وخمسمائة، وبقي الأمر على حاله في أيام الأمير قتادة بن إدريس بن مطاعم بن عبدالكريم وأراد أن يرد الشيء إلى أصله، يعني أخذ الجزية من المغاربة فأدركه الموت وارتفع عنهم"[٨٢].

من الملاحظ أن هذه الشكاوى تتكرر ولم تختف من مسرح المرافئ في مصر والحجاز، علماً بأن كل هذه الشكاوى تتعالى في أواخر الدولة الأيوبية، وفي بدايات الدولة المملوكية في القرنين السابع والثامن الهجريين (١٣-١٤م) [٨٣]، وهنا نتساءل عن الأسباب التي أدت بدورها إلى استمرارية هذه الظاهرة في تلك الفترة الممتدة؟

-كان من الطبيعي أن تكون الاضطرابات التي صحبت سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية مقرونة باختلال النقد واضطرابه، إلا أن النقد ظل مضطرباً طوال السنوات العشر الأولى من تاريخ دولة المماليك[٨٤]. وقد كان لكثرة النقد المتداول ورواج الفلوس النحاسية خاصة أثر في ارتفاع الأسعار وغلاء المبيعات، فأصبح النقد يوزن ولا يعد. وهذه أول مرة يخسر النقد فيها صفة العد ليصبح محلاً للوزن. ولربما أدى هذا إلى ضعف ثقة الناس في قيمة النقود وعمدوا إلى نظام المقايضة، ومن ذلك ما يرويه ابن المجاور قائلاً: "وجميع ما يباع بمكة مقايضة كج بكج.." [٨٥].

– قد تعرضت العملة في عصر المماليك للتلاعب في العيار والتغيير في الوزن والتبديل في الحجم، الأمر الذي جعلها لا تحوز على ثقة المتعاملين من التجار – وقد أشار القلقشندي إلى أن العبرة في وزن الدنانير بالمثاقيل، قائلاً عن الدنانير التي سُكت في مصر في تلك الفترة: "إن الغالب فيها نقص أوزانها، وكأنهم جعلوا نقصها في نظير كلفة ضربها"[٨٦] . هذا وفي الوقت الذي اعترى الدنانير المملوكية ذلك الخلل، نجد أن المرينيين [٨٧] احتفظوا بوزن الدينار الذي كان عليه أيام الموحدين وهو ٤,٧٢٩ [٨٨] من الجرام ،ولعل السبب في احتفاظ المرينيين بوزن الدينار على ما كان عليه أيام الموحدين حرص بني مرين على ألا تهتز قوة الدينار الشرائية.

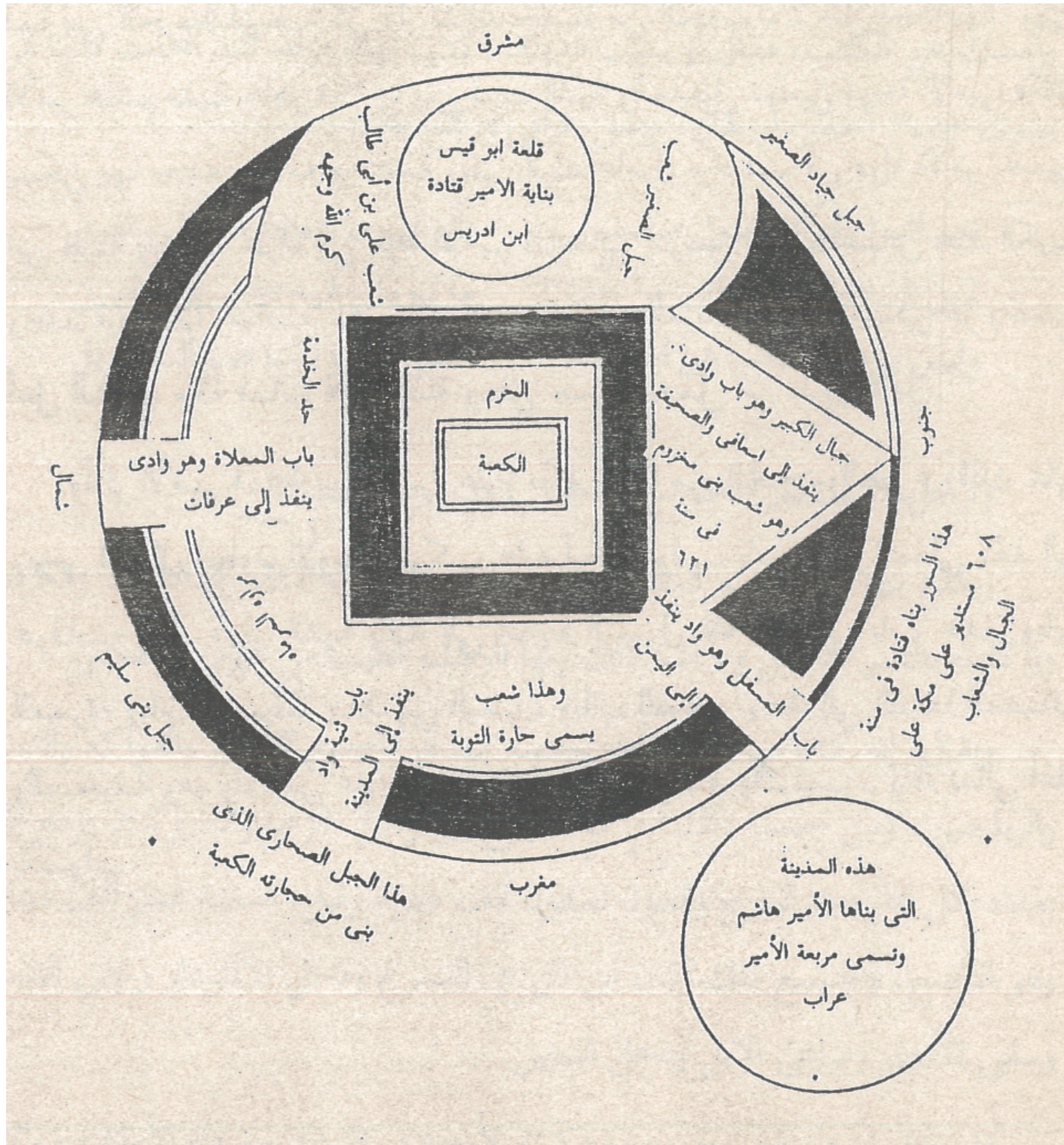
–كانت للأزمات الاقتصادية من غلاء ومجاعات دور في زعزعة الحياة الاقتصادية في كثير من حلقات ذلك العصر. وكيفما كان الأمر فإن هذه المكوس مثلت ورداً مالياً مهماً لبيت المال بجانب المصادر الأخرى، حيث كانت الدولة تقوم بأوجه النفقات المختلفة مثل القصور السلطانية ،وأرزاق الجند، والإنفاق على الحملات العسكرية، ونفقات المشروعات العامة.

الخاتمـــة

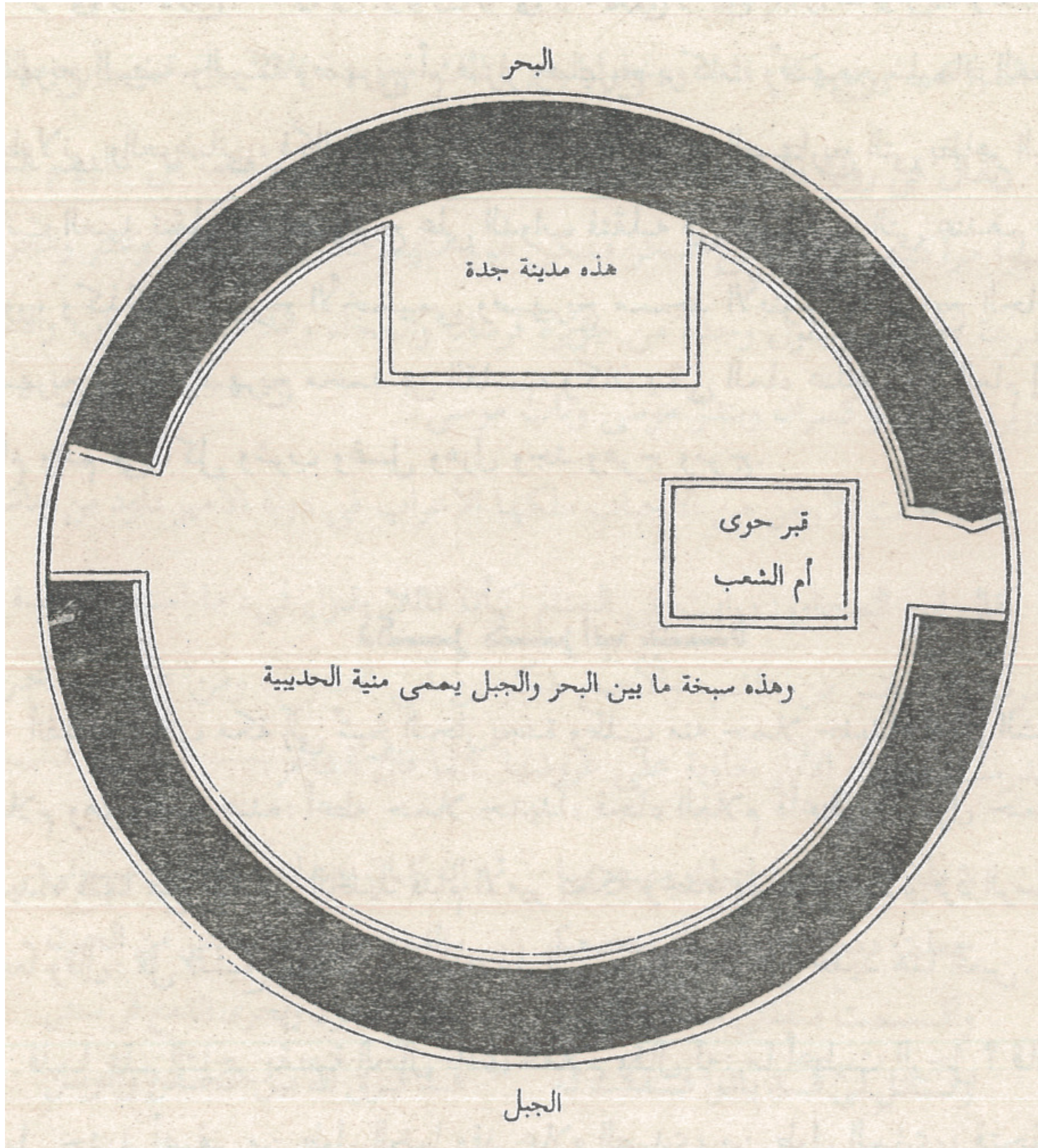
ترجع أهمية كتاب ابن المجاور إلى عدة اعتبارات أهمها أنه نص مباشر غير معاد، وأنه نص جاء في مرحلة كانت الكتابات الرحلية فيها قليلة عن مكة المكرمة، إضافة إلى غناه بالمعلومات التي رسمت صورة مكة المكرمة في مرحلة حرجة تميزت من الناحية السياسية بالاضطرابات الداخلية وضعف الكيانات المحلية وغياب الرقابة المركزية، وباشتداد الصراعات الخارجية حول مكة المكرمة.

وعلى الرغم من طغيان المعطيات الطبوغرافية والملاحظات الأثنوغرافية على نص الرحلة، فهناك بعض الإشارات التي ركز عليها والتي يمكن أن تفيد الباحث كعنايته الخاصة بذكر عادات أهل مكة سيما الزواج والأسماء، وتحصيل المكوس والمقارنة بين أسعار بعض المواد بين مكة واليمن ومصر، وتركيزه على أحوال المعيشة بصورة خاصة، ومقارنته بين صرف العملات المكية والمصرية، ووصفه قبائل السرو الذين يعتمرون في أول رجب، وأديان مدينة نجران ويهود تبالة، كما ضمّن لنا رسماً توضيحياً مجسماً لمدينة مكة وسورها الذي بناه الأمير قتادة سنة ٦٠٨هـ/1212م.

ونعتقد أن الكتاب ككل يحتاج كما هو الشأن بالنسبة لكل كتب الرحلات الواسعة إلى تحقيق علمي تجزيئي، حتى يتمكن الباحثون من تدقيق كثير من معطياته، وتصحيح ما شاب طبعاته من أخطاء.



شكل رقم ١: صورة مكة المكرمة،كتاب صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تأريخ المستبصِر)،تحقيق اوسكر، بيروت، منشورات المدينة، ١٩٨٦، ص١١.



شكل رقم ٢: صورة مدينة جدة، كتاب صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تأريخ المستبصِر)،تحقيق اوسكر، بيروت، منشورات المدينة، ١٩٨٦، ص٤٤.

ببليوغرافيا

١- هو نجم الدين ابو الفتح يوسف بان الصاحب يعقوب بن محمد بن علي الشيباني الدمشقي الكاتب: (٦٠١-٦٩٠هـ)=(١٢٠٥-١٢٩١م)،سمع من الكندي، وعبدالجليل، وتفرد برواية "تاريخ بغداد" عن الكندي. يقول الحافظ الذهبي: "كان ديناً، ومصلياً، إلا أنه يخدم في المكس". انظر: الحافظ الذهبي، العبر في خبر من عبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ج٥، ١٩٨٦، ص٣٧٠؛ ابن العماد، شهاب الدين ابن الفلاح الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، مطبعة ابن كثير، ط١، م٧، ص٧٢٨؛ خيرالدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم)، دار العلم للملايين، بيروت، ج٨، ص٢٥٨؛ ابن تغري البردي، جمال الدين ابن المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة، ج٧، ص٣٣؛ أغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية (جامعة الدول العربية)، القسم الأول ، ٣٤٩-٣٥١.

٢- كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص٣٥٠.

٣- المصدر نفسه، ص٣٥١.

٤- تاريخ مخطوطات هذا الكتاب معقد للغاية، فإلى جانب المخطوطات التي وجدت طريقها إلى أوروبا بفضل مجهودات شيفير Schefer ، أضيفت مخطوطتان آخريتان في عهد دي خويه ولاندبرج، ورغماً عن هذا فلم يقدر لأحد هذين العالمين أن يتخذ قراراً بإخراج طبعة كاملة للكتاب، ولعل لوفغرين Lofgren كان أكثر حظاً منهما فقد استطاع أن يضيف إلى تلك المخطوطات مخطوطة استنبول، وينشر قطعاً من كتاب ابن المجاور. والأثر حقاً جدير بطبعه كاملة، فقد نشرها أخيراً (١٩٣٦).كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص٣٥٠، ٣٥١.

٥- ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تأريخ المستبصر)، تحقيق اوسكر لوفغرين ،بيروت، منشورات المدينة ، الطبعة الثانية، ١٤٠٧/١٩٨٦، ص٢-٦.

٦- قبائل يمنية يسكونون في جبال السراة كقبيلة بجيلة فاشتق اسمهم من اسم بلادهم. يحدثنا ابن جبير عن صفات البداوة فيهم – انظر: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، الشاطبي البلنسي، ولد في بلنسية سنة ٥٣٩هـ. وكانت وفاته بالإسكندرية، حيث أقام هنالك محدثًا، في سنة ٦١٤هـ. ابن جبير، الرحلة، دار الهلال، بيروت، ١٩٨١، ص٩٥-٩٦؛ ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٢٦.

٧- سورة البقرة، آية (١٤٤).

٨- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص١٧.

٩- المصدر نفسه، ص١٨.

١٠- المصدر نفسه، ص٢٥.

١١- يقول ابن المجاور: "أن الطود الأعظم على هذا الوجه هو الحجاز بعينه لأنه حجز ما بين نجد وتهامة، ويقال أنه جبل متصل إلى اليمن، وديار العرب هي الحجاز التي تشتمل على مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها ونجد والحجاز المتصل بالبحرين وليس في سائر الأقاليم أطيب منه ولا أصح من جوه وهواه". المصدر نفسه، ص٣٩.

١٢- الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب لقب بـ أبي المعالي،(576/ 635هـ) ،خامس سلاطين الدولة الأيوبية حكم من(1218 م /1238 م).ولاه أبوه الديار المصرية سنة (615 هـ)ـ خمس عشرة وستمائة، وحسنُت سياسته فيها، واتجه إلى توسيع نطاق ملكه فاستولى على حران، والرها، وسروج، والرقة، وآمد ثم امتلك الديار الشامية. .من آثاره المدرسة الكاملية بمصر، وقد توفي الملك الكامل في دمشق سنة(635هـ)، واستمر في الملك عشرين سنة. انظر: المرتضى الزبيدي، تحقيق صلاح الدين المنجد، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب ،ط.٢،بيروت – لبنان، دار الكتاب الجديد ،1995 ، ص٣٦.

١٣- المصدر نفسه، ص٤١.

١٤- المصدر نفسه، ص١١، ٤٤.

١٥- المصدر نفسه، ص٩.

١٦- قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم، موصول إلى الإمام علي بن أبي طالب، يكنى أبي عزيز المكي صاحب مكة وينبع وغيرها، ولي مكة عشرين سنة، وكان أبوعزيز في بداية أمره حسن السيرة، ولكن تغير حاله وساءت معاملته للحجاج وأكثر المكوس، أدركه أجله سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م). انظر: الفاسي، تقي الدين محمد الحسيني، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، تحقيق محمد حامد الفقي، ط٢، ١٩٨٥، ج١، ص٣٩، ٦١؛ ابن الأثير، عز الدين ابو الحسن علي الجزري، الكامل في التاريخ ،ط٤،بيروت،دار الكتاب العربي،١٩٨٣، ج١٢، ص٤٠١.

١٧- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٩-١٠.

١٨- انظر: ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،بيروت،مؤسسة جمال للطباعة والنشر،١٩٧٩، ج٤،ص١٠٥-١٠٦؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٢١٣؛ عزالدين ابن فهد الهاشمي القرشي، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ت حقيق فهيم شلتوت،ط١، دار المدني،ج١، ص٥٧٥؛ العصامي،عبد الملك بن حسين، سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، ب.ت، ج٤، ص٢١٤، ٢١٩؛ التجيبي، القاسم بن يوسف، مستفاد الرحلة والاغتراب،عبد الحفيظ

منصـــور،ليبيا-تونس،الـــدار العربيـــة للكتـــاب، ص٣٠٥-٣٠٦-٣٠٧، ص٤٨٢.

١٩- عيسى بن فليته بن القاسم بن ابي هاشم محمد بن جعفر الحسني.امير الحرمين.تولى امرة مكة بعد منازعته مع ابن اخيه قاسم بن هاشم بن فليته سنة ٥٥٦ﻫ واستمر الى ان توفى سنه ٥٧٠ﻫ ،وقد كانت بداية امرته المدينة سنة ٥٦٤ﻫ.انظر: الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الامير،تحقيق مُنية الطّالب في معرفة الاشراف الهواشم الامراء، توزيع مؤسسة الريان، بيروت، ط.١٩٩٨،١،ص٥٣.

٢٠- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٩.

٢١- المصدر نفسه، ص٤٦.

٢٢- ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٤٠١؛ الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٩،٦١.

٢٣- ابن تغري البردي،جمال الدين ابو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،دار الكتب، ج٦، ص٢٤٩-٢٥٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٤٠١.

٢٤- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٤٨-٤٩.

٢٥- المصدر نفسه، ص١٦.

٢٦- المصدر نفسه، ص٢١.

٢٧- حسن بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم الحسني يكنى بأبي عالي – أمير مكة المكرمة بعد أبيه نحو ثلاث سنين قتل أباه وأخاه وعمه، ولكن لم يستمر في حكم مكة، إذ أخرجه منها الملك المسعود سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، وكان سيئ العشرة والسيرة، وهو الذي قتل أمير الحاج العراقي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م . انظر: الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص١٦٠،١٧٤.

٢٨- يوسف بن محمد بن أبي بكر محمد بن أيوب الملك المسعود بن الملك الكامل ابن الملك العادل صاحب اليمن ومكة دخلها وانتزعها من حسن بن قتادة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٨م – توفي ١٣جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م.انظر: عزالدين بن فهد، غاية المرام، ج١، ص٥٨٤، ٥٩٥.

٢٩- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص١٦.

٣٠- القاسم بن يوسف بن محمد التجيبي السبتي، رحالة أندلسي الأصل نشأ في المغرب وقد أشار إلى سنة مولده في ٦٧٠هـ/١٢٧١م خرج قاصداً الحج ولقاء العلماء وكان خروجه ٦٩٥هـ/١٢٩٥م وتقع رحلته التي سماها (مستفاد الرحلة والاغتراب) في ثلاث مجلدات، توفي سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م. انظر: التجيبي، مستفاد الرحلة، المقدمة ص ح-خ-د-ذ.

٣١- التجيبي، مستفاد الرحلة، ص٣٠٥، ٣٠٦، ٣٣٤، ٣٣٦.

٣٢- القلقشندي، احمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق نبيل الخطيب،ط١،دار الفكر، ١٩٨٧، ج٤،ص٢٧٢، ٢٧٥، ٢٧٧.

٣٣- الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٤٧٠؛ علي السليمان، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك،القاهرة،١٩٧٣ ص٢٠٧.

٣٤- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص١٠.

٣٥- المصدر نفسه،ص١٠.

٣٦- الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول626 هـ ملك الدولة الرسولية في اليمن حكم في الفترة (1229 / 1249 م)، ضُربت السكة باسمة وخطب له في جميع أقطار اليمن سنة ٦٣٠ هـ وكانت إقامته في تعز وجهز حملة إلى الحجاز، فاستولى على مكة وتوابعها، وتم له ملك ما بينها وبين حضرموت. وانتظم له ولبنيه ملك الحجاز واليمن ٢٣٢ عاماً. وللمنصور آثار جليلة بمكة واليمن، منها مدارس ومساجد وكانت نهايته أن اغتاله نفر من مماليكه بقصره .

انظر: ابن تغري البردي،الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي،ب.ت،ج١،ص٥٠١-٥٠٢ .

٣٧- الخزرجي،علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني،١٩٨٣، ج١، ص٤٢؛ ابن أيبك الدواداري، الدر المطلوب في اخبار بني ايوب،تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور،القاهرة،١٩٧٢، ج٧، ص٣٠٧؛الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٤٩٤-٤٩٥؛ ؛ باقاسي، عائشة بنت عبد الله، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي،منشورات نادي مكة الثقافي-دار مكة للطباعة والنشر، ص٥٢-٥٣.

٣٨- ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٩٩.

٣٩- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٥.

٤٠- (سواكن) ميناء سوداني على ساحل بحر الجار قرب عيذاب ترفأ إليه سفن الذين يقدمون من جدة وأهله بجاة سود نصارى. انظر: الحموي،شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت، معجم البلدان، دار صادر،ب.ت،ج٣، ص٢٧٦؛ أبي القاسم التجيبي، مستفاد الرحلة، ص٢٤٥.

٤١- أبي القاسم التجيبي، مستفاد الرحلة، ص٣٠٦-٣٠٧.

٤٢- عزالدين ابن فهد، غاية المرام، ج٢، ص٧٦، ١٣٧.

٤٣- عواطف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية(مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين)، الرياض،١٩٩٦، ص٢٠٩.

٤٤- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٥٢-٥٣.

٤٥- ابن رشيد،ابو عبد الله محمد الفهري، ملءُ العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة وطيبة،تحقيق محمد الحبيب،ط١،بيروت،دار الغرب الاسلامي،١٩٨٨، ج٥، ص٨٧.

٤٦- البلوي، خالد بن عيسى، تاريخ المفرق في تحلية علماء المشرق،تحقيق الحسن السائح،طبع تحت اشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي بين المملكة المغربية ودولة الامارات العربية،مطبعة فضالة-المغرب، ج١، ص٢٧٩.

٤٧- هدية: محطة للجمال في وادي طبق البلادي، معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٦٩.

٤٨- ابن جبير، الرحلة، ص٨٩، ١٢٩.

٤٩- ابن المجاور، الرحلة، ص٢٦.

٥٠- المصدر نفسه، ص٢٦.

٥١- لم نجد ما يؤيد صحة ذلك، والثابت في ذلك "عمرة رمضان" والله أعلم.

٥٢- ابن المجاور، الرحلة، ٢٦-٢٧.

٥٣- ابن جبير، الرحلة، ص٩٨.

٥٤- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٢٧.

٥٥- ابن جبير، الرحلة، ص٩٦.

٥٦- تباله: سميت بهذا الاسم نسبة إلى تبالة بنت مكنف (كتاب معجم البلدان) وهي تقع على وادي تبالة أحد فروع وادي بيشه ويقع هذا الوادي عدة قرى ومدن في جبال السروات الحموي، معجم البلدان.

٥٧- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٣٢-٣٣.

٥٨- المصدر نفسه، ص٣٣.

٥٩- الاندلسي ،الرحالة بنيامين بن يونة التطيلي النباري ، رحلة ابن يُونة الأندلسي الى بلاد الشرق الاسلامي،ترجمها وعلق على حواشيها عزرا حداد،ط١،دار ابن زيدون،بيروت،١٩٩٦، ص١٤٨.

٦٠- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٧.

٦١- المصدر نفسه، ص٧.

٦٢- المصدر نفسه، ص٧.

٦٣- المصدر نفسه، ص٧.

٦٤- المصدر نفسه، ص٧.

٦٥- المصدر نفسه، ص٩.

٦٦- المصدر نفسه، ص٩.

٦٧- المصدر نفسه، ص٢٧.

٦٨- رحلة ابن جبير، ص٩٦.

٦٩- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٤٣-٤٤.

٧٠- المصدر نفسه، ص١٣.

٧١- المصدر نفسه، ص١٢.

٧٢- المصدر نفسه، ص١٢.

٧٣- حسنين،محمد ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين،القاهرة،١٩٦٤، ص٩٩-١٠٠.

٧٤- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٥؛ عبدالرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها،القاهرة،١٩٦٤، ص٧٣.

٧٥- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص١٢-١٣.

٧٦- عرف المقريزي المكس بأنه دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق، وأن أصل المكس في اللغة الجباية، أما كلمة "مقس" فيذكر المقريزي بأنها اسم قرية على ساحل النيل واقعة شمال القاهرة، كانت تعرف من قبل باسم أم دنين ولكن سميت بهذا الاسم، لأن الماكس كان يعقد بها ليستخرج المكس، فكلمة مكس تحريف لكلمة مقس. أنظر: المقريزي،تقي الدين احمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة ، ج٢، ص١٢٠.

٧٧- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،تحقيق محمد مصطفى،القاهرة، ج١، ق١، ص٤؛رحلة ابن

جبير، ص٤٧؛ إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين،القاهرة،١٩٢٥ ،ج١، ص٦٩؛ علي بن الحسن، العلاقات الحجازية المصرية في زمن سلاطين المماليك، ص١٦٠.

٧٨- أبوشامة، شهاب الدين ابو محمد المقدسي، الروضتين في اخبار الدولتين، بيروت، ب.ت، ج١، ص٢٠٥؛ حسنين ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص٥٠؛ عائشة باقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص٧١.

٧٩- عطيه القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر، القاهرة،١٩٧٦، ص٢٣٧؛ علي بن الحسين، العلاقات الحجازية، ص١٦١.

٨٠- المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٣٢-٣٣٣، بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج٢، ص١٧٨؛ عائشة باقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص٧٢.

٨١- مكثر بن عيسى بن فليته بن محمد جعفر الحسني كانت ولايته لمكة المكرمة عدة سنين يتداولها هو وأخوه داوود مدة ثلاثين سنة وبمكثر انقرضت ولاية الهواشم لمكة المكرمة على اختلاف سنة انقضائها ،وولايته بدأت ٥٧١ هـ/١١٧٥م،وهو الذي بنى الحصن على جبل ابي قبيس وهدمه امير الحاج العراقي طاشتكين، توفي سنه ٦٠٠ هـ/١٢٠٣م.انظر: الفاسي، العقد الثمين،ج٧،ص٢٧٤-٢٧٩.

٨٢- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص٤٨-٤٩.

٨٣- انظر: العبدري، ابي عبد الله محمد الحيحي، الرحلة المغربية، حققه محمد الفاسي، جامعه محمد الخامس، الرباط، ص٨٥-٨٦؛ ابن رشيد، ملء العيبة، ج٣، ص٢٠؛ مقدمة للمحقق ابن الخوجة، التجيبي، مستفاد الرحلة، ص١٧١؛ البلوي، تاج المفرق، ج١، ص١٩٧.

٨٤- حسن إبراهيم، الحضارة العربية، ص٣٠٤.

٨٥- ابن المجاور، تأريخ المستبصر، ص١٣.

٨٦- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٤١.

٨٧- المرينيين، بنو مرين أو بنو عبد الحق هي سلالة حكمت بلاد المغرب الأقصى من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر ميلادي، وتوسعت حدود دولتهم خارج نطاق المغرب في عهد السلطان أبي سعيد الأول،ويوسف بن يعقوب وخاصة أيام أبي الحسن المريني، الذي ضَمَّ لدولته المغرب الأوسط والأدنى فوحد المغرب الكبير تحت رايته. انظر: محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، ١٩٩٦،ص ١٤-١٩.

٨٨- انظر: ابن خلدون، العبر، ج١، ص٢١٤؛ عبدالعزيز بن عبدالله، مظاهر الحضارة المغربية، الدار البيضاء، ط١، ص١٩٥٧، القسم الأول، ص٧٥-٧٦.

Massignon, I. ,Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle, Alger, 1906, pp 102 – 103.

Mecca Almukaramah at the beginning of the seventh century AH (13 AD) through Ibn Almugawer's journey (Clairvoyant's History)

Nawaf Abdul Aziz Al-Jahmah

Associate Professor, Faculty of Basic Education،
General Authority for Applied Education, Kuwait

Abstract. In the two years (625-626 AH) (1227-1228 AD), *Ibn Almugawer* gave a precise description of *Mecca Almukaramah* in his era, pointing to the importance of *Mecca Almukaramah* and its religious rank. The material presented by him is of great importance because it filled a gap in the traveling and geographical information of *Mecca Almukaramah* at the beginning of the seventh century AH (13 AD), especially since *Ibn Almugawer* was not just a chatty and a historian, but also a traveler with accurate observation.
In view of the importance of the book from the scientific and historical point of view, we have decided to re-consult it, especially to its most documented editions (Oscar Lofgren Verification), to explore its material about *Makkah Almukaramah* and to vet some of its details and references that reflect an important phase in the history of *Mecca Almukaramah*, for the paucity of the writing about and the disturbance of the available historical material around it.